

عالمية القرآن

في رمضان ١٣٨٧ هـ (ديسمبر ١٩٦٧) بدأ العالم الإسلامي احتفالاته ،
بذكرى مرور أربعة عشر قرناً على بدء نزول القرآن ، على قلب النبي
عليه الصلاة والسلام ، وهو يتعبد وحيداً في غار حراء .

واستمرت الاحتفالات عاماً كاملاً ، وشملت أقطاراً فيها أقليات
إسلامية ، رأت حكوماتها - مشكورة - أن تشارك في هذه المناسبة رسمياً
وشعبياً . وتنوعت الأساليب التي عبر بها العالم الإسلامي عن إيمانه بالقرآن
الكريم : فعقد المؤتمرات العلمية ، وألحق بها معارض لمطبوعات القرآن
والكتب التي تتناول دراسته ، وأرسي أحجار الأساس في مساجد
ومؤسسات دينية تضم الخدمات الاجتماعية والثقافية والصحية ، إلى جانب
العبادة وإقامة الشعائر ، ونشر بحوثاً وكتباً عن القرآن والتعريف بالعالم
الإسلامي ومشكلاته المعاصرة ، وترجمة معاني القرآن إلى لغات جديدة
لم يسبق الترجمة إليها .. واتجهت هذه الجهود جميعاً إلى تحقيق الأهداف
النبيلة التي أنزل من أجلها القرآن : تأكيداً لكرامة الإنسان وصعوداً
بالمجتمع إلى آفاق من التقدم المتكامل ، وعناية بالأجيال الجديدة من أبناء
الإسلام ، وتوثيقاً للصلات بينهم وبين كتاب قال الله في حقه :

« قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ
اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ، وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى

النُّورِ بِإِذْنِهِ ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » [المائدة :
١٥ - ١٦] .

فلنحاول معاً أن نتذكر بعض الركائز التي جعلت للقرآن هذه
المكانة العالمية .

١ - شمول الإيمان

لقد دعانا ربنا في كتابه إلى أن نؤمن بالرسول جميعاً ، وفي هذا يقول ربنا :
« آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ، كُلٌّ
آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ
مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا : سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ
الْمَصِيرُ » [البقرة : ٢٨٥] .

وجوهر هذا الإيمان إسلام النفس لله تعالى لتنتقل من هذا الإسلام
تعمل الخير مؤمنة أن مردها إلى الله .

نرى هذا « الإسلام » في قول إبراهيم وإسماعيل : « وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ
الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ : رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » [البقرة ١٢٧]

ثم يدعوان ربهما بعد هذا قائلين : « رَبَّنَا واجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ

لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ ، وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا
 إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ
 يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ
 إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » [البقرة : ١٢٨ - ١٢٩] .

ثم يؤكد ربنا هذه الوجهة في الحياة : الإيمان بالله. وإسلام النفس
 إليه فيقول : « وَسَنُيْرَغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ
 نَفْسَهُ ؟ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ
 الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ : اسْلِمْ قَالَ : اسَلَمْتُ لِرَبِّ
 الْعَالَمِينَ » [البقرة : ١٣٠ - ١٣١] .

ويحس إبراهيم حلاوة الإيمان . ويعيش في حياته مؤمناً مجاهداً في أكثر
 من قطر من أقطار وطننا العربي ، يدعو إلى الله ، ويخاصم قومه من أجل
 الحق ويحطم الأصنام ، ويهاجر أكثر من مرة ، ويبني البيت العتيق ،
 ويرى في الإيمان أعظم ما أعطاه الله ، فإذا به وصيته إلى أبنائه :
 « وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ : يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى
 لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » [البقرة ١٣٢] .

ويرى يعقوب أن هذا الإيمان هو الكثر الذي يكون حديثه عنه ،
 آخر قوله وهو يودع حياته . يذكر الإيمان ولا يذكر جاهاً ولا مالاً :

« أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ : مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا : نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا . وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » . [البقرة : ١٣٣] .

ويقول يوسف : « رَبُّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ » . [يوسف : ١٠١] .

وتسمعهما على لسان عيسى : « فَلَمَّا أَحَسَّ عَيْسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ : مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ : نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ، آمَنَّا بِاللَّهِ ، وَأَشْهَدُ بِأَنَّكَ مُسْلِمُونَ » [آل عمران : ٥٢]

هذا هو الشمول الذي رضي به لنا ربنا في قوله في ختام ما أنزل من قرآن :

« الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا » (المائدة : ٣) .

ويوضح الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الإيمان الشامل بحديث يصور لنا فيه استمرار عمل الأنبياء وجهادهم بصورة حسية فيقول :

« إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فحسبه وجملته ،
إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يلقون به ويعجبون له ويقولون :
هلا وضعت هذه اللبنة ! فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين » (رواه الشيخان) .
فشبه نفسه وهو رحمة الله المهداة وصفوته من خلقه بلبنة في زاوية من
زاويا بيت جميل حسن . . هكذا يعلمنا رسولنا التواضع وصدق الله :

« وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ » . [القلم : ٤]

إنه إيمان لا يتقيد بعصر أو قطر ، وإنما هو إيمان فسيح يضم الأنبياء
والرسل ، ويرى جهادهم جميعاً حلقات متتابعة ، من سلسلة الوحي التي
ختمها الله برسوله ، وحدد بها للإنسانية خط سيرها ومنحها رشدها . .

٢ - العلم

وهو إيمان يقوم على أساس عريض من العلم . ولو كان هناك شيء
أكرم من العلم لأمر الله نبيه أن يطلبه منه عندما علمه أن يقول :

« وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا » [طه : ١١٤]

إن القرآن آيات لأولى الألباب . . لقوم يتفكرون . . لقوم يتذكرون .
لقوم يعقلون . . لأولى النهى . .

وهذا الكون العريض الذي خلقه لنا ربنا ، فيه آيات للموقنين . .

« وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟ » [الداريات : ٢١]

وربنا يقول : « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ

حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ . أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ

شيء شهيد» [فصلت : ٥٣] .

وأول ما أنزل ربنا من قرآن كان قوله : « اقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ
الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقرأ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ *
الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » [العلق : ١-٥]
فهي قراءة . ولكنها باسم ربك الذي خلق . وقد يقرأ الإنسان ويكتسب
علماً ، ولكنه يجعل هذا كله في خدمة أهوائه وشهواته . . . وقد يكون عند
شعوب ودول علم ، ولكنها لا تقرؤه باسم الله . . . وإنما تجعله حكراً
وأسراراً ، ثم تستخدمه بعد هذا في إذلال شعوب وبغى بالباطل .

من أجل ذلك يفرق القرآن الكريم بين صنفين من العلم ذكرهما في
قصة قارون . . الأول ما اغتر به قارون فنصحه قومه : « لا تَفْرَحْ إِنَّ
اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَلَا تَنْسَ
نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَحْسِنِ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ، وَلَا تَبْغِ
الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ . إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ » فكان قوله :
« إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي » فهو لم يرد هذا
العلم إلى ربه ، ولم يكن عمله في حياته موجهاً إلى مرضاة ربه . .
وهذا العلم الأصم هو الذي استهوى أنظار بعض قومه فقالوا : « يَا لَيْتَ
لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ » . في حين استطاع الآخرون
أن ينفذوا إلى حقيقة ما فيه قارون من استعطالة كاذبة واستعلاء بالباطل .

وذكر الله لنا أمرهم في قوله : « وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ : وَيَلَكُمْ ، ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ، وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ » [القصص : ٧٦ - ٨٠] .

العلم الذي نتعلمه ونقرؤه ، علينا أن نذكر دائماً فيه قول الله : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ » في هذه الآية جمع بين العمل والنية ، بين الجهد والهدف . إنها تحدد أخلاقيات البحث العلمي ، وتذكر الإنسان بالأصل الذي جاء منه . . . خيّل الإنسان من علق . فكما أن ربك رباك ورعاك حتى أصبحت بشراً سوياً ، وأعطاك السمع والبصر والفؤاد ، وأسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة ، فاجعل علمك وقراءتك باسم ربك . وكما أكرمك ربك بهذا - وهو ربك الأكرم - فإنه يبين لك أعظم إكرامه لك بعد هذا بقوله :

« الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » .

رحلة طويلة من « خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ » إلى « عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » . . . رحلة تبدو فيها قدرة ربنا ورحمته وكرمه : منه البدء وإليه الرجعى .

وهذا العلم الذي نكتسبه في حياتنا ليس حقائق متناثرة ، ولا مجموعة من المصادفات تتدفق دون وحدة تنتظمها ، أو قوانين تحدد مسارها . . وإنما يعلمنا ربنا أن نبحث عن سنته في كونه : « قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ » [آل عمران : ١٣٧] .

وجههم ربنا إلى هذا بعد النكسة في غزوة أحد . . كيف تهزمهم

قريش وهم مؤمنون؟ كيف يُهزمون وقائدهم رسول الله؟ وعليه يتنزل القرآن؟
لقد انتصروا في بدر فماذا أصابهم في أحد؟ ويعلمهم الله فيقول:

«أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ: أُنَّى هَذَا؟ قُلْ: هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ. إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». وما أصابكم يوم التقى الجمعان قبائذن الله « [آل عمران: ١٦٥ - ١٦٦]

فللنصر قوانين وللهزيمة قوانين. ومن الممكن أن يُهزم المسلمون وإن كان قائد المعركة رسول الله، وعليه يتنزل الوحي، إذا ما خالف الصحابة عن أمره. فإذا ما أردتم أن ترتفعوا فوق نكستكم، فعليكم بمعرفة سنن الله في الحياة... ادرسوا هذه السنن في أنفسكم، وابحثوا عنها في أقطار الأرض. سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذابين.

إن أمر النصر والهزيمة ليس معجزات وخوارق كونية، وإنما هو إيمان وعلم وعمل وتنظيم واستعداد. إنه جهد وعرق وثبات في الميدان... إنه منهج تعرفون به أمر عدوكم وأمر أنفسكم، فتسلكون طريقكم على هدى وبصيرة.

إن الله يدعونا إلى أن نسير في ضوء العلم فيقول: «وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ. إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا» [الإسراء: ٣٦].

إنه القرآن الذي يعتبر تعطيل الحواس وعدم استخدامها، جرماً يستحق عليه الإنسان ذل الحياة وعذاب الآخرة. ولنسمع في هذا قول الله تعالى

عن أهل النار : « وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ
السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ فَنُحِقُوا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ »
[الملك : ١٠ - ١١]

ويجعل العلم أساساً من أسس المفاضلة بين الأفراد فيقول : « قُلْ هَلْ
يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَبْصَارِ »
[الزمر : ٩] .

هذا هو العلم الذي ذكر الله مشتقاته في القرآن في نحو ثمانمائة
وخمسين موضعاً ، تكريماً له وتعظيماً ، والذي دعانا ربنا إلى أن نطلبه ونسير
مهاجرين في طلبه ، وساوى فيه الإسلام بين مداد العلماء ودم الشهداء .

٣ - العمل

وهو ليس علماً نظرياً يكتفى بمجرد التحصيل دون أن يستجيب
لحاجات الحياة المتجددة ويرقى بها إلى الآفاق التي أرادها لها ربها ، وإنما
هو علم ترتبط فيه الفكرة بالتنفيذ ، والعقيدة بالعمل . وفي هذا نسمع
قول الله : « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ
الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ
تُوعَدُونَ » [فصلت : ٣٠] .

وهي استقامة شاملة مرافق الحياة جميعاً . . تستغرق - فيما تستغرق -

شئون الإنتاج والخدمات والبحث العلمي والدفاع . . وهي في الوقت نفسه تنظم طاقة الأمة وتوجهها نحو الهدف الكبير الذي تسعى إليه .
 ففي مرحلة كالتى نمر فيها الآن : تبرز حاجة أمتنا إلى استكمال استعدادها استرداداً لأرضنا ومقدساتنا . وفي هذا نقرأ قول الله تعالى :
 «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ، وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ ، اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ » [الأنفال : ٦٠]

الإعداد هنا عمل . . عمل على أساس علمي منظم ، ينبغي أن ترتفع فاعليته حتى تحقق هدفين رئيسيين : أولهما إرهاب عدو الله وعدونا الذى نعرفه ، والثانى معامل احتياط أو معامل أمان يرهب خصماً لا نعرفه ، يقول فيه ربنا : «وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ » .
 وإذا كان هذا المستوى يحتاج إلى جهد علمي لا تتوافر عندنا مصادره ، فعلىنا أن نطلبه حيث يتوافر . وطلبه حيث نطلبه فرض علينا . وبهذا نضع العلم في خدمة الإنسان ، دون أن يظل ترفاً عقلياً غير مرتبط بمتطلبات الحياة المتجددة .

والعمل هنا - كالعلم - ليس جهوداً فردية عشوائية ، وإنما ينبغي أن ينتظمه تخطيط دقيق ، ترتفع به فاعلية العلم إلى أقصى مدى ممكن ، دون إفراط أو تفريط . وبهذا يبدو الترابط الدقيق بين الإيمان والعلم والعمل . .

٤ - كرامة الإنسان

وكل ذلك جعله الله تعالى من أجل كرامة الإنسان . . الذى كرمه الله بأن خلقه وسواه ، وأسجد لأبينا الأول ملائكته بعد أن علمه الأسماء كلها . .

كرامة بالخلق .

كرامة بالعلم .

كرامة بالاستخلاف فى هذه الأرض : « وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ

لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً » .

كرامة بالمساواة بين الناس نجدها فى قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ

إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ

لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ »

[الحجرات : ١٣]

كرامة تتساقط دونها حواجز اللون والعنصرية والطبقية ، ويرتفع معها

صوت النبوة فى حجة الوداع : « أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم

واحد . كلكم لآدم وآدم من تراب . أكرمكم عند الله أتقاكم . وليس لعربى

فضل على عجمى إلا بالتقوى » ثم يشهد الله على قوله : « ألا هل بلغت؟

اللهم فاشهد » فترد الجموع المؤمنة فى موقف الحج الأكبر « نعم » قال :

« فليبلغ الشاهد الغائب » .

وما زلت أذكر أياماً في المسجد النبوي الشريف بعد أداء فريضة الحج ، وجموع المسلمين تتوافد على المسجد على اختلاف السنهم والوانهم . . كلهم أمام الله سواء . . وفي بيته سواء . . وفي الحياة سواء . . لا يسألهم أحد عن أجناسهم والوانهم ومواطنهم . وإنما جمعهم الإيمان الواحد بالرب الواحد وخاتم المرسلين ، وضممتهم أخوة إنسانية واحدة . .

وترتفع عيناي إلى زخارف الصحن الحديد ، في الجزء الخلفي من المسجد ، فأرى أسماء الصحابة وقد زينت عقود الصحن ، وتتوقف عيناي عند أسماء بلال بن أبي رباح ، وصهيب بن سنان ، وسلمان الفارسي رضي الله عنهم أجمعين : الأول يعود بأصله إلى الحبشة . . إلى إفريقية ، والثاني إلى اليمن ، وعاش شطراً من حياته في أرض الروم ، حتى عرف باسم صهيب الرومي ، والثالث من فارس : مجد المسلمون أسماءهم ، فزينوا بها المسجد النبوي على اختلاف ألوانهم .

بلال كان مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم في الحضر والسفر . صحبه في المشاهد كلها ، وما تخلف عنه في غزوة . . بلال كان رقيقاً حبشياً . وعذبه كفار قريش عندما أسلم ، فكانوا يلقونه على الصخور في وقدة الحر ، ويشتدون في تعذيبه فلا يزيد على أن يقول معلناً لإيمانه : « أحد . . أحد . . » ولم يرض رغم التعذيب العنيد ، أن يدنس لسانه بكلمة الكفر ، بعد أن طهره الله تعالى بكلمة الإيمان .

ويشتره أبو بكر ويعتقه ، فيقول في هذا عمر بن الخطاب : أبو بكر سيدنا ، وأعتق سيدنا (يعني بلالا) . ويدخر الله له فضلاً كبيراً ، فيكون مؤذن الرسول في المسجد النبوي .

ويدعوه الرسول إلى الأذان فوق الكعبة عام الفتح ، فيكون أول من ارتفع فوقها بالتكبير . ولم يكن ذلك يسيراً على قريش وكبريائها ، فيقول عتاب ابن أسيد ، وقد أسلم يوم الفتح ، وكأنه يعبر عن وجهة نظر قريش كلها

عندما صعد بلال فوق ظهر الكعبة مؤذناً : « الحمد لله الذى قبض أبى حتى لم ير هذا اليوم » . وقال الحارث بن هشام : « أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً » ؟ ! ...

وفى هذه العصبية اللونية ينزل قول الله تعالى محمداً أساس الحياة

الإنسانية فى أمادها وأقطارها : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ

ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُرُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا . إِنَّ أَكْرَمَكُمْ

عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » [الحجرات : ١٣]

ويدعوه عمر بن الخطاب إلى الأذان فى بيت المقدس عندما حرره

المسلمون فيكون أول صوت يرتفع فيه بالتكبير .

فضل ادخره الله لرجل بدأ حياته فى الإسلام رقيقاً حبشياً من إفريقية ،

فعاش فى مجتمع كريم أذهب الله عنه نعمة الجاهلية وتعاضمها بالآباء . .

وسلمان الفارسي الذى دفعه البحث عن الإيمان إلى أن يترك وطنه

فى فارس فى رحلة مؤمنة إلى الشام ، ثم إلى الجزيرة العربية ، ويؤمن بربه

ويجاهد مع رسوله ويقول عنه الرسول عليه السلام : « سلمان منا أهل البيت » .

وهو الذى يشير على الرسول بخطوة حضر الخندق حول المدينة فى غزوة

الأحزاب ، فىكون ذلك من التخطيط العسكرى الذى تقف دونه قريش

عاجزة . . ولقد كانت غزوة الأحزاب غزوة قاسية تغلب فيها الإيمان

والعمل العلمى ، الذى أطلق طاقات الصحابة . دون نظر إلى ألوانهم أو

أعراقهم التى جاءوا منها . .

وصهيب الرومى يهاجر من مكة إلى الله بدينه لا يعنيه إلا أمر إيمانه ،

ويتبعه رجال من قريش يريدون القبض عليه وإعادته إلى مكة ، فيلتفت

إليهم كالأسد المصور ، وبين يديه سهامه وقوسه ، وعلى عاتقه سيفه

ويقول : « والله لقد علمتم أنى من أركم ، والله لا تصلون إلى حى
أقتل بكل سهم من هذه رجلا منكم ثم أقاتلكم بسيفى حتى أقتل . وإن
كنتم تريدون المال فأنا أدلكم على مالى . هو مدفون فى مكان كذا وكذا »
فانصرفوا عنه فأخذوا ماله .

فلما قدم قال له رسول الله : « ربح البيع أبا يحيى » وأنزل الله :
« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَعُوفٌ
بِالْعِبَادِ » [البقرة : ٢٠٧] .

ولما جعل عمر الأمر شورى بين الستة ليختاروا من بينهم خليفة كان
هو الذى يصلى بالناس حتى تعين عثمان . وهو الذى ولى الصلاة على
عمر - وكان له صاحباً - وكان أحمر شديد الحمرة (١) .
ويجمع النبي عليه الصلاة والسلام هذه الباقية الإنسانية معه فى حديث
يقول فيه : « أنا سابق العرب ، وصهيب سابق الروم ، وسلمان سابق
الفرس ، وبلال سابق الحبش » (٢) .

ويأتى الآسيويون إلى المسجد النبوى - أجيالا بعد أجيال - فيجدون
لهم أبا كان فيه من الصحابة هو سلمان .
ويأتى الروم ومن وراءهم ، فيجدون لهم أبا كان فيه ، هو صهيب .
ويأتى الإفريقيون ليجدوا بلالا مؤذن رسول الله .

الأجناس كلها تمثلت فى الصف الأول من أصحاب الرسول عليه الصلاة
والسلام . ويقولها الرسول عن سلمان « سلمان منا أهل البيت » .

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٧ : ٣١٨ .

(٢) السيوطى : الجامع الصغير ١ : ١٠٧ .

ويقولها عمر بن الخطاب من بعده: «والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال ، وجئنا بغير عمل ، فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة ، فإن من قصر به عمله لا يسرع به نسبه .»

حقوق الإنسان :

أسوق هذا القول والعالم الإسلامى والدول الصديقة تحتفل بمرور أربعة عشر قرناً على نزول القرآن ، وقد توافق هذا مع احتفال الأمم المتحدة بمرور عشرين عاماً على إقرار وإعلان «الإعلان العالمى لحقوق الإنسان» وقرارها بأن يكون عام ١٩٦٨ سنة تتعاون شعوب الأرض فيها على تعميق مضمون هذا الإعلان الذى تنص مادته الأولى على : «يولد جميع الناس أحراراً متساوين فى الكرامة والحقوق ، وقد وهبوا عقلاً وضميراً ، وعليهم أن يعامل بعضهم بعضاً بروح الإخاء .»

وتقول مادته الثانية : « لكل إنسان حق التمتع بكافة الحقوق والحريات الواردة فى هذا الإعلان دون أى تمييز ، كالتمييز بسبب العنصر أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأى السياسى أو أى رأى آخر أو الأصل الوطنى أو الاجتماعى أو الثروة أو الميلاد أو أى وضع آخر ، دون أية تفرقة بين الرجال والنساء . . . »

وتتوالى المواد حتى تبلغ الثلاثين عدداً . . ثم تتلفت عيني إلى تطبيق ذلك فى حياتنا المعاصرة . . قضية أرضنا السليبية ، ومسجدنا الأقصى المحترق ، والآف المشردين من أوطانهم ، وفى أوطانهم . . التفرقة العنصرية فى جنوب إفريقيا وفى كثير من الدول المتقدمة . . الحرب فى فيتنام .

ترى لو كان الفيتناميون بيض الوجوه ؟ هل تكون المعاملة كما هى الآن ؟ والأمريكيون السود الذين يساقون إلى مصارعهم فى قضية لا يؤمنون بها ، ويقتلون إخوانهم فى الإنسانية بغير ذنب ولا جريرة . .

بل التفرقة العنصرية في نيويورك نفسها ، بين الشارع الخامس وحي « هارلم » حيث يسكن الزوج . . . هناك تحس أنك انتقلت بين عالمين : حتى القطار يسير في القسم الأبيض تحت الأرض ، فإذا ما أدرك حي « هارلم » حيث يسكن السود برز فوق الأرض يفرض عليها وجوده .

القرآن والتفرقة العنصرية :

وعدت إلى القرآن الكريم لأرى كيف عالج القضية معالجة كان تطبيقها العملي ما نرى في أرض القرآن .
وذكرت حي الأزهر عندنا في القاهرة ، وفي رحابه يجتمع طالبو العلم من مشارق الأرض ومغاربها . . من قارات الأرض جميعاً ، على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ، في إخاء ما أحوج الإنسانية إلى اقتباسه . . إن القرآن لم يذكر البياض مادحاً ، ولا ذكر السواد ذاماً ، وإنما ذكرهما ظاهرات تدل على قدرة الله وخلقه .

إن القرآن يذكر اختلاف الألسنة والألوان وسط حشد من الظاهرات الطبيعية والبشرية ، ويعتبرها جميعاً أدلة على وجود الله . ووضعها بهذه الصورة دون أن يفرد لها وحدها دراسة خاصة ، وفي هذا أعمق الدلالة على أنها مجرد ظاهرات كغيرها من الظاهرات الطبيعية والبشرية ، تجمعها كلها نظرة واحدة من التأمل الذي يعمق الإيمان في النفس ، ويدعوها إلى العمل القائم على الحب والرحمة .

وفي هذا يقول الله تعالى :

« فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ
الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ * »

يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ، وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ، وَيُخَيِّبُ
 الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ
 تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ
 أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ،
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
 لِلْعَالَمِينَ * وَمِنْ آيَاتِهِ مَنْامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ
 فَضْلِهِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ
 يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ، وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْزِي
 بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ *

[الروم : ١٧ - ٢٤]

وحديث القرآن الكريم عن اختلاف الألسنة والألوان بين الناس ،
 يماثل حديثه عن اختلاف الألوان في آفاق البيئة الطبيعية . هو مظهر
 لقدرة الله ، له في النفوس قداسة واحترام ، وواجبنا حياله أن نعمل وفق
 أوامر الله ما استطعنا إلى ذلك سبيلا .

وفي هذا يقول الله تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ

السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ
جُدُدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ . وَمِنَ
النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ، إِنَّمَا
يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ .

[فاطر ٢٧ : ٢٨]

على أن الذي يستوقف النظر في الآيتين : الأولى التي تخبرنا عن
اختلاف الألوان بين الناس ، والثانية عن اختلاف الألوان في الغطاء
الصخري والنباتي وعالمى الحيوان والإنسان، أن الأولى تنهى بقول الله : « إن
في ذلك لآيات للعالمين » والثانية بقوله : « إنما يخشى الله من عباده
العلماء » .

هنا نلتبس ربطاً بين هذه الظاهرات وضرورة البحث العلمى فيها ،
واطمئناناً من القرآن الكريم إلى أن ما يكشف عنه البحث العلمى الموضوعى
في هذا المجال ، لن يكون متعارضاً مع الأساس الذى تقوم الحياة عليه ،
وهو أن يكون الناس جميعاً إخوة - فهم أبناء أب واحد - وأن يعملوا في
الحياة دون أن يكون لفروق اللون - بشرية كانت أو طبيعية - من الأثر
ما يعوق هذا التعاون الإنسانى من أجل حياة أفضل .

وعندما نحتفل بذكرى مرور أربعة عشر قرناً على نزول القرآن ،
وتحتفل الدنيا بمرور عشرين عاماً على « الإعلان العالمى لحقوق
الإنسان » لنذكر أصولاً حضارية نعيش فيها ، ولا تزال كثير من الدول
المتقدمة تتعثر على طريقها ، وتعجز عن رؤية جوهر الإنسانية الواحد
وراء اختلاف الألسنة والألوان .

ذكريات من المسجد النبوي، ومن تطبيق القرآن في ذكرى الاحتفال بنزوله..
 وآمال تشد حاجة الإنسانية الظامئة إلى تحقيقها، وعندها من كتاب
 ربها شفاء لأدوائها، وري لظمئها.. كتاب يستوى أمامه الناس جميعاً:

«وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ
 تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ، وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي
 بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ
 مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
 أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ» [الشورى : ٥٢ - ٥٣]

٥ - السلام

وهذه الكرامة الإنسانية مضافة إلى ركائز الإيمان والعلم والعمل
 تستهدف إقامة السلام في هذه الدنيا.. السلام الذي كرمه الله في أكثر
 من موضع من كتابه:

جعله الله على لسان المؤمنين في قوله: «وَإِذَا خَاطَبَهُمُ
 الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا» [الفرقان : ٦٣].

وجعله تحية للمؤمنين يوم يلقون ربهم: «تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ
 يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ» [الأحزاب : ٤٤]

وجعله رفيق الحياة في كل أمرها : « وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا » [مريم : ٣٣] ..
 بل جعله ربنا من أسمائه الحسنی فقال : « هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّبُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ » [الحشر : ٢٣]
 كثيرة هي الآيات والمواقف التي ذكر فيها ربنا السلام في كتابه ..
 ولكن أي سلام ؟

إنه السلام القائم على العدل ، و الفرق كبير بين السلام والاستسلام ..
 فرق كبير بين السلام العزيز ، وبين السلام المستخذي الدليل .
 إننا من أجل السلام العزيز نعد أنفسنا ، ونعيد تكوين جيشنا وقوتنا ،
 وننظم صفوفنا لاسترداد حق سليب ووطن مغتصب .

هذا هو السلام الذي يدعو إليه القرآن الكريم .. سلام بعد الحصول على الحق وإقامة شريعة العدل ، ولنسمع في هذا قول الله تعالى :
 « وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفْئِدَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ، فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ » [الحجرات : ٩] .

وبعد .. فهذه كلمات في هذه الذكرى الكريمة .. ذكرى مرور

أربعة عشر قرناً على بدء نزول القرآن الكريم . . كلمات من كتاب
لا تقنى عجائبه ، وما أشد حاجة الإنسانية إليه . .
دعانا - فيما دعانا - إلى الإيمان وإلى العلم وإلى العمل وإلى كرامة
الإنسان وإلى السلام . .

إيمان يحفظ لنفوسنا وحدتها فلا تتوزعها الأهواء ، ويضع فيها ميزاناً
تفرق به بين الحق والباطل ، ويدفعها إلى العمل الدائب مؤمنة أن مردها
إلى الله .

وعلم تبذل الإنسانية جهدها في تحصيله ، وتجعله في خدمة الحق
والسلام . .

وعمل تترجم به العلم والإيمان إلى حقائق مجسدة . .
وكرامة إنسان تدعو إلى احترامه حيث يكون ، دون نظر إلى لونه
أو جنسه أو وضعه الاجتماعي . لا تحرمه قوتاً ولا كساء ولا علماً ولا عملاً
ولا حقاً .

وسلام هو الهدف الأسمى لذلك كله على أساس من العدل والحق
الذي قامت به السموات والأرض .